تأصيل مصطلح فقه اللغة

الدكتور محمـــد خان

جامعة بسكرة

بسم الله الرحمن الرحيم {ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم} الروم: 22.

مقدمة:

اللغة ظاهرة لصيقة بالإنسان، فهي من أخص مميزاته، وقد فطر على تلقيها من مجتمعه بدءا من طفولته؛ ليحقق وجوده الاجتماعي؛ وليتخذها أساسا في التعبير عن أغراضه، ويجعلها أداة لتواصله الحضاري عبر العصور. إنها رفيقة مسيرته التاريخية الطويلة، ولا تزال كذلك إلى يوم الناس هذا.

وقد وقف الإنسان أمامها متسائلا: ما أصلها؟ أهي إلهام أم تواضع؟ وكيف نشأت ؟ ولماذا اختلفت اللغات؟ وكيف تتغير؟ وما علاقتها بالفكر؟ وما علاقتها بالمجتمع؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي تطول، وتتنوع وتختلف باختلاف الأمم وتعاقب الأزمان. وحاول العلماء أن يجيبوا عنها، فبحثوا وفكروا، وكانت إجاباتهم متسمة بالذاتية في كثير من الأحيان، إذ بلغ الأمر ببعضهم إلى حد تقديسها وجعلها اللغة الأزلية.

عرفت اللغة العربية قوية في نصوص الأدب الجاهلي، وازدادت قوتها حينما نزل القرآن لكريم بها، فكان لها الشرف التليد لما ارتبطت بذلك الكتاب السماوي، فصارت صلتها به وثيقة لا تكاد تنفصم – وهو كتابها الأول – وقدر لها أن تكون لسانه الخالد بخلوده. منه استمدت بعض العلوم العربية أصولها، ومن أجله وضعت قوانينها. وتمثل تلك النصوص الدينية والأدبية نضج العربية واكتمالها في صيغها، واشتقاقها، وألفاظها، وإعرابها، وتراكيبها، وأساليبها.

ولما كان الدين الإسلامي يدعو إلى الاتصال بين الأمم- وقد دخل الناس في دين الله أفواجا - صار من الضروري أن يتعلم الناس لغة هذا الدين الذي آمنوا به عقيدة وشريعة دينا ودولة، فنشأ البحث اللغوي في رحاب النص القرآني[1]. ومن أجل خدمته تلاوة وفهما، وكما كان هناك فقهاء في الدين، ظهر فقهاء في اللغة؛ لأن العوامل التي ساعدت على نشأة ذلك مشتركة، والأهداف الحضارية واحدة.

وقد يكون من المفيد - في هذا المقام - أن نتعرض بشيء من الإيجاز إلى تأصيل مصطلح "فقه اللغة" في التراث العربي، ثم نشفع ذلك بما جد عند المحدثين، ونشير إلى مفهومه عند الغربيين، ونبين الفروق بين كل ذلك.

معنـــى الفقـــــه لغـــة :

ورد لفظ (فقه) بصيغة المضارع في القرآن الكريم عشرين مرة[2]- وهذه النسبة تقوم شاهدا قويا للاستدلال- كانت كلها بمعنى العلم والفهم على الإطلاق، وكانت مقيدة بلفظ الدين في قوله تعالى: {فلو لا نفر من كل قرية منهم طائفة ليتفقهوا في الدين} الآية 122 من سورة التوبة. أي: ليكونوا علماء به، وبهذا المعنى نفسه جاء في لسان العرب[3]: الفقه: العلم بالشيء والفهم له. وقد جعله العرف خاصا بعلم الشريعة، ويقال: فقه يفقه بمعنى علم يعلم، وفقه الرجل صار فقيها، وقال محمد الجرجاني توفى(816هـــ): "الفقه هو في اللغةعبارة عن فهم غرض المتكلم من كلامه "[4].

---

1 - نشأ الدرس اللغوي لدى كثير من الأمم القديمة مرتبطا باعتقاد ديني، فظهر البحث اللغوي عند الهنود لخدمة نصوصهم المقدسة (الفيدا)، وعند الصينيين لخدمة النصوص البوذية، وعند اليونان لدراسة الشعر الحماسي والديني، وعندااليهود لخدمة التوارة...

2 - ورد هذااللفظ على سبيل المثال في سورة النساء 78 والأنعام 25 وهود 91 والإسراء 44 وطه 28...

3 - لسان العرب، طبعة دار المعارف بمصر، مادة (فقه).

4 - كتاب التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، 1985، ص 175.

في هذا المجال الدلالي ظهرت مؤلفات عدة تتخذ من العربية موضوعا لها، ومن خصائصها أهدافا يسعى العلماء إلى إبرازها، فاستقام أمر كثير من العلوم اللغوية، حيث تبوأت مرتبة عليا في مدارج الحضارة العربية الإسلامية. واعتز العلماء بهذا أيما اعتزاز، فصارت حصنها الذي يقيها آفة الاضمحلال...

بداية التأليف في فقه اللغة :

ظهر في دنيا العربية - خلال القرن الرابع الهجري -كتابان تحت عنوان: " فقه اللغة"، وتوضيحهما فيما يلي:

أولا - يضع أبو الحسين أحمد بن فارس (308-395 هـ) لفظ فقه اللغة عنوانا لكتابه: الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها. وهذا المصنف يتناول كثيرا من المسائل الفكرية والتاريخية واللغوية، فيتحدث عن أصل اللغة، وفصاحة قريش، وعن الخط العربي، وأفضل اللغات واختلافها، وأقسام الكلام ومعانيه، والأسماء والأفعال والحروف ومعانيها، وعن طرائف التعبير والشعر... إن هذه القضايا قد عالج بعضها ابن جني (392 هـ) في كتابه الخصائص. ..

وهي - ولا شك - مسائل فكرية تمثل رؤى مختلفة صبت في موضوعات شتى، لا يكاد يربط بينها رابط منهجي - والقرن الرابع قمة في التأليف - ماعدا أنها مباحث لغوية تنم عن إعجاب شديد بهذه اللغة، وتتنزل في مساق الانتصار لها، والرد على خصومها، فابن فارس يعلن معاداته للثقافة اليونانية، وينادي بإعجاز القرآن الكريم، ويعتقد بأن لغة العرب إلهام من الخالق سبحانه مستدلا بالآية الكريمة :

{وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة} 31 من سورة البقرة.

ثانيا :- يعضده معاصره أبو منصور الثعالبي (350 - 430 هـ) صاحب كتاب " فقه اللغة وسر العربية" وهو عبارة عن قسمين:

1- قسم "فقه اللغة" تم تصنيفه بمقتضى طريقة معاجم المعاني[1]، فيتناول ألفاظا تتعلق بموضوع واحد، ويجمعها في باب مستقل كالألبسة والأطعمة والألوان، والنبات والشجر والحيوان، والصفات كالكبر والصغر والطول والقصر. ويشبهه في هذا الميدان كتاب المخصص لابن سيده. وبذلك تكون قيمته عملية. وينتفي عنه مفهوم فقه اللغة الوارد عند سابقه (ابن فارس).

2- قسم "سر العربية" تم تضمينه مجموعة من الأبحاث التي تتعلق بالنحو والصرف والبلاغة، كالتذكير والتأنيث والمفرد والجمع والتقديم والتأخير والإضافة والاختصاص والاستعارة والكناية والحروف...

هكذا اتفق ابن فارس والثعالبي في وضع لفظ واحد أي " فقه اللغة " عنوانا لكلا كتابيهما، ولكنهما أهملا تحديد هذا المصطلح الذي يظهر – أول مرة – في ميدان التأليف، ونحن نعتقد أن وضع الحدود سمة من سمات هذا العصر، وإذا كانا قد اتفقا في العنوان فإنهما اختلفا في المضمون، فكل واحد منهما قد عالج موضوعات تختلف عن الأخرى بعض الاختلاف، وتقترب من مؤلفات أخرى لا تحمل العنوان نفسه. وإذا كان أمرهما كذلك فإنه يدعو إلى الاعتقاد أن مصطلح " فقه اللغة " لم يكن ذا مفهوم واحد في عصر هذين العالمين (القرن الرابع الهجري). وإن استبعد أحدنا هذا المنحى كان لزاما عليه أن يلغي فكرة "المصطلح" وينفي تخصيصه بالتأليف، ويعتبر – حينئذ – كل تأليف في قضايا اللغة العربية فقها لها، ومن هذا المنطلق يمكن أن نشير إلى بعض المؤلفات التي هي من هذا القبيل من العلم، فيكون التأليف في موضوعات فقه اللغة قد بدأ بكتاب الأصمعي (215 هـ) عن الاشتقاق في العربية، ويتجلى في كثير من موضوعات الخصائص لابن جني(392 هـ)،

1- بدأ هذا النوع من التأليف بجمع الكلمات حسب الموضوعات مثل الإبل والخيل والنبات والإنسان، فظهر كتاب المطر لأبي زيد الأنصاري وكتاب خلق الإنسان لعمرو بن كركرة وكتاب الحشرات لأبي خير الأعرابي، وكتاب النخل والكرم والخيل والوحوش والنبات والشجر للأصمعي..

ونعني المسائل التي تتعلق بخصائص اللغة وبأصولها. كما أن ابن سيده (458 هـــ) عرض في كتابه > المخصص< بعض القضايا الخاصة بنشأة اللغة والترادف والتضاد والاشتراك والتعريب. .. ولا ضير أن يعد كتاب المزهر[1] للسيوطي (911 هـــ) من هذا النوع. إنه ألصق بفقه اللغة، وإذا استعملنا المقايسة – وهو منهج علمي – فإننا نضيف كثيرا مما يشابه كتابي ابن فارس والثعالبي من كتب التراث، ونضع لذلك حدودا مبدئية فنقول: يعتبر من فقه اللغة كل الكتب التي تحدثت عن المعرب والدخيل والاشتقاق والتضاد وبصفة عامة كل ما من شأنه أن يعد من خصائص العربية.

والنتيجة أن القدماء استعملوا هذا المصطلح استعمالا لا يخلو من الغموض والتباين، ولا أدل على ذلك من إغفال تحديد المصطلح، وكذلك اختلاف المضامين بين الكتب المعاصرة لبعضها البعض، ودليلنا مستقر لدى ابن فارس والثعالبي. ولو توقف الأمر عند القدماء لقلنا: "حداثة العلم" – والحداثة قد تكون شفيعا لصاحبها – ولكن المسألة تعدت إلى المحدثين، وبات من الصعب عليهم أن يحددوا بدقة الفرق بينه وبين اللسانيات، لأن موضوعاتهما تداخلت في كثير من مؤلفاتهم، حتى ذهب أحد المعاصرين إلى أن التفرقة بين العلمين تافهة[2]. وهو المرحوم صبحي الصالح.

---

1 – قال المرحوم صبحي الصالح: من أفضل الكتب القديمة – إن التمستم كثرة النصوص وسعة المعلومات – المزهر– ينظر دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، ص19.

2 – دراسات في فقه اللغة، ص 19.

مفهوم المعاصرين لفقه اللغـــة :

ونحاول أن نتتبع التأليف في هذا الميدان المعرفي من بدايته عند المحدثين مبينين مفهوم كل باحث لهذا المصطلح " فقه اللغة "مشيرين إلى ما يقابله عند الغربيين – مع شيء من التجوز – وهو (Philologie)

يشير الدكتور علي عبد الواحد وافي إلى أن كلمة فيلولوجي (Philologie) يختلف مدلولها كثيرا باختلاف العصور والأمم، ومازال الاختلاف فيها مستمرا، وحينما تطلق هذه الكلمة يراد بها دراسة اللغة من حيث قواعدها وتاريخ أدبها ونقد نصوصها[1]. وهو نفسه لم يلتزم – في كتابه المشار إليه – بهذه المجالات الثلاث التي حد التعريف بها: (وهي القواعد، وتاريخ الأدب، ونقد النصوص)، وصرح بكل وضوح أنه يدرس في كتابه هذا فصيلة اللغات السامية وصلتها بالحامية. كما تعرض بالتفصيل لبعض خصائص اللغة العربية كالنحت والاشتراك والتضاد والدخيل والإعراب، والمجاز والكناية. وما تعريف الفيلولوجيا عنده إلا كما هي عند الغربيين، ولكنه حاد عنها في كتابه، ومال إلى المنهج العربي التراثي في معالجة قضايا فقه اللغة. ولا يفوتنا أن نذكر أنه تناول في كتابه "علم اللغة"[2] وهو ترجمة لمصطلح(Linguistique) المتداول في الفكر العربي، قلنا: تناول مسائل عدة اعتبرها غيره من موضوعات فقه اللغة مثل: أصل اللغة ونشأتها، وحياتها، واللهجات وأساليبها، وصراع اللغات[3]. إنه ظل مشدودا إلى مفهوم فقه اللغة في التراث العربي حسب ما جاء في المؤلفات

---

1 – فقه اللغة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط 7، 1973، ص 14.

2 – اعتبر الدكتور وافي كتابه علم اللغة بمثابة الجزء الأول وكتابه فقه اللغة بمثابة الجزء الثاني ونتيجة لذلك فلا فرق عنده بين العلمين (فقه اللغة وعلم اللغة).

3 – ينظر، د/ وافي، علم اللغة. ص 16 وما بعدها.

المخصصة له، متأثرا بما جد في الدراسات الغربية وبخاصة فقه اللغة المقارن، ويلاحظ عليه أنه غض الطرف عما جاء في التعريف الذي دونه في كتابه.

أشرنا قبل قليل إلى أن الدكتور صبحي الصالح يسوي بين علم اللغة وفقه اللغة، وهو يؤلف في خصائص العربية، والخصائص – كما يعلم كل لغوي – أهم مباحث فقه اللغة[1] ولذلك يتساءل قائلا: لماذا لا نعد كتاب الدكتور إبراهيم أنيس من أسرار اللغة من كتب فقه اللغة ؟ وهو ممن عالج موضوعات فقهية في كتابه منها: العربية والساميات، وتاريخها، والعربية الباقية ولهاجاتها، ولهجة تميم، وخصائص الفصحى، والإعراب، والاشتقاق، والنحت، واتساع العربية في التعبير، وتعريب الدخيل، وصيغ العربية، وأوزانها، والعربية في العصر الحديث.

ويحاول صبحي الصالح أن يعرف فقه اللغة ليشمل كل القضايا التي عالجها، فيقول: "منهج للبحث استقرائي وصفي يعرف به موطن اللغة الأول وفصيلتها وعلاقتها باللغات المجاورة أو البعيدة، الشقيقة أو الأجنبية وخصائص أصواتها وأبنية مفرداتها وتراكيبها وعناصر لهجاتها وتطور دلالتها ومدى نمائها قراءة وكتابة"[2].

فقه اللغة واللسانيات (أو علم اللغة):

يتضمن تعريف المرحوم صبحي الصالح ثلاثة مجالات: مجال تاريخي يتعلق بموطن اللغة الأول، وتطورها وعلاقتها بغيرها، ومجال صوتي يتعلق بلهجات اللغة وتطور أصواتها، ومجال دلالي يتعلق بتطور الألفاظ وما تفيده من المعاني. .. فإذا كانت هذه المجالات من مباحث فقه اللغة بمقتضى التواتر – وهو تثبيت للقضية – وبمقتضى ما استقر عليه التأليف في هذا الميدان، فإنها بالتأكيد ليست – حينئذ – من علم اللغة أو (اللسانيات). وإذا أجاز بعضهم

1- دراسات في فقه اللغة، ص 8.

2- نفسه، ص 8.

أن تكون تلك المجالات من فقه اللغة ومن مجالات اللسانيات، فإن التنازع قد حدث بين العلمين؟.

وربما كان المزج بين العلمين واضحا في كتاب محمد المبارك فقه اللغة وخصائص العربية ، إنه عنون كتابه بكلمة فقه ، ولكنه في بداية مصنفه يأخذ في تعريف علم اللغة – وهو يرادف فقه اللغة عنده – فيرى أن علم اللغة قد يكون عاما يتناول اللغة بوجه عام، وقد يكون خاصا بلغة من اللغات يتتبع ظواهرها وخصائصها وتطورها وقوانينها[1]. ولا ما نع من أن نطلق عليه أحد الاسمين علم اللغة أو فقه اللغة. ونراه يقتبس من مبادىء اللسانيات، فيقول: "فإن البحث العلمي يتجرد عن مثل هذا الحكم (الحسن أو القبح) وإنما يدرس واقعا ويصور حقيقة محسوسة ويحاول تحليلها وتعليلها دون أن يحكم عليها بالصحة أو الفساد[2]. ولا يلبث أن يعود إلى ميدان فقه اللغة، يقول: "إن معرفة خصائص اللغة وقوانينها وسنن تطورها يمكننا من إصلاحها ومراقبة تطورها والسير به في اتجاه يناسب خصائصها الأصلية ولا يعرضها للذوبان والانحلال[3]. وإذا كان قد مازج بين العلمين على المستوى التأسيسي – وهو من دعاة التسوية – فإنه على المستوى العلمي تناول قضايا تعد من صميم فقه اللغة – وفق المنظور التراثي – مثل نشأة اللغة، والتوليد والاشتراك والتضاد والترادف والتعريب والأخطاء وخصائص العربية.

---

1 – فقه اللغة وخصائص العربية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 7.1981، ص20.

2 – نفسه، ص 34. يقول سوسير: > إن مادة الألسنية تتكون بادىء ذي بدء من جميع ظواهر الكلام البشري سواء تعلق الأمر بكلام الشعوب المتوحشة أو الأمم المتحضرة في العصور العتيقة أو الكلاسيكية أو في عصور الانحطاط. والمعتبر في كل عصر من هذه العصور ليس الكلام الصحيح و< الكلام الأدبي > فقط، ولكن جميع أشكال التعبير > دروس في الألسنية العامة، تعريب صالح القرمادي ومحمد الشاوش ومحمد عجينة الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا 1985، ص24.

3 – محمد مبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، ص 41.

ومن المحدثين الذين فرقوا بين مصطلح فقه اللغة وعلم اللغة الدكتور عبده الراجحي حيث حدد مجالات كل منهما قائلا: يعالج فقه اللغة موضوع اللغة باعتبارها وسيلة إلى غاية أخرى، فميدانه أوسع وأشمل. إن الغاية النهائية لفقه اللغة هي دراسة الحضارة أو دراسة الأدب من خلال اللغة. ومن ثم شغل فقهاء اللغة بتقسيم اللغات تقسيما سلاليا وبالمقارنة بينها، وبإعادة صياغة اللغات القديمة، وبإعداد النصوص والنقوش القديمة للنشر بوضع الشروح، والتفاسير عليها، كل ذلك من أجل الوصول إلى ما تتضمنه من عادات وتقاليد وعقائد ومضامين حضارية على العموم، ومعنى ذلك أن عمل فقهاء اللغة عمل تاريخي مقارن في أغلبه، وأنه منصب على اللغات القديمة باعتبارها لغات مكتوبة، ولم يعد في الإمكان سماعها[1].

هذه النظرة التاريخية لم تعرف لدى العرب السابقين، إنما استمدها المؤلف من مناهج الغربيين، وبخاصة من سوسير الذي يقول: وليست اللغة موضوع الفيلولوجيا الوحيد إذ أن هم أصحابها إنما هو ضبط النصوص وتأويلها والتعليق عليها، ولذلك فإن هذا الطور من أطوار الدراسة سيفضي بهم إلى أن يعتنوا كذلك بتاريخ الأدب والأخلاق والمؤسسات وغيرها؛ ولذلك سيعتمدون في كل من هذه الميادين منهجهم الخاص الذي هو النقد، وإن هم انبروا يدرسون المسائل اللغوية فإنما يفعلون ذلك خاصة للمقارنة بين نصوص من عهود مختلفة، ولتحديد اللغة الخاصة بكل كاتب أو لرفع العجمة عن الكتابات المنقوشة في لغة عتيقة أو غامضة ولتفسيرها[2]، لاشك في أنه لا فرق بين الرأيين، ولذلك تعمدت نقل النصين للتدليل على قوة التأثير الغربي في مناهج بعض الدارسين العرب. ومن هذا المنطلق تكون المباحث العربية التي عولجت من لدن فقهاء اللغة ليست من فقه اللغة في رأيه، وعلينا أن نبحث انتماء هذا الدرس إلى علم اللغة>. ونتيجة لذلك تصبح العربية خلوا من المؤلفات في

---

1 – فقه اللغة في الكتب العربية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت 1979 ص26.

2 – دروس في الألسنية العامة، ص 17، 18.

فقه اللغة (Philologie)، وتصير الكتب التي هي موسومة بهذا المصطلح من قبيل علم اللغة أي: اللسانيات، وهو توجه فريد.

ليس بلازم أن يطابق مفهوم فقه اللغة لدى العرب مثيله عندالأمم الأخرى من ناحية موضوعاته وأهدافه، فلذلك درجات توجهها أسس الحضارة ،و تقودها عوامل الفكر، وتبرزها وقائع الزمان. . . وهذا العلم نفسه الموسوم (Philologie)، وهو المقابل للمصطلح العربي فقه اللغة – مع شيء من التجوز – مختلف فيه بين أبناء الغرب. إنه يعني عند الألمان الدراسة العلمية للنصوص الأدبية لقديمة وبخاصة النصوص اليونانية والرومانية القديمة، ويعني أكثر من ذلك دراسة الثقافة والحضارة من خلال النصوص الأدبية>[1]. ولكنه عند الإنجليز يعني الدراسة المقارنة بين اللغات[2]، ولذلك اشتهر فقه اللغة في الجامعات المصرية بأنه الدراسة المقارنة للغة العربية بالعبرية على الخصوص، وبأنه بحث التطور لدلالي التاريخي للفظة العربية[3] ويتنزل جانب التطور الدلالي في صنع المعجم التاريخي للغربية 4.

خاتمـــة:

وتحصيل ذلك أن العلماء العرب وقفوا مواقف متباينة إزاء هذا المصطلح، وإن كانوا قد ألفوا في موضوعات فقه اللغة، وأطلقوا عليها هذاالاسم صريحا، فإنهم لم يضعوا له تعريفا جامعا مانعا – كما يقال – وكذلك لم يكن التأليف فيه موحدا في مناهجه وموضوعاته.

---

1 – فقه اللغة في الكتب العربية، ص 55.

2 – نفسه، ص 25.

3 – نفسه، ص 26.

4 – نفسه، ص 28 عني المستشرق الألماني > فيشر< بالمعجم التاريخي للعربية منذ نهاية القرن الماضي، واستطاع أن يخطو في عمله خطوات، وتوفي عام 1949، فواصل المجمع اللغوي بمصر فكرة إنجاز المعجم الكبير، وظهر الجزء الأول منه سنة 1970. والجزء الثاني تحت الطبع. ينظر الدكتور إبراهيم مدكور، مقدمة المعجم الوجيز، ط 1، سنة 1980.

واختلط عند المتأخرين بعلم اللغة، فتساوى باللسانيات لدى الكثيرين، فانضوى جزء من التراث في مجال اللسانيات، وإذا كان كذلك فإننا أصبحنا سباقين إليه، ولنا فضل الريادة في الوضع والابتكار. وإنه لموقف جريء يغير كثيرا من المفاهيم.

والحقيقة التي نركن إليها أن مدلول فقه اللغة عند العرب يتعلق بالموضوعات التي تبحث في أصل اللغة العربية، ونشأتها وتطورها، ولهجاتها، وفي خصائصها التي تتميز بها، والعوامل التي تساعدها على الصمود والتطور ومواكبة العصر حبا فيها واعتزازا بها. إنه اتجاه يفتخر به علماؤنا، ولا جرم إن بقيت أنظارهم مشدودة بإعجاب إلى خصائص العربية[1] لأنه ليس بالضرورة أن يطابق مصطلح فقه اللغة العربية مفهومه لدى الغربيين. فلا جدال في أن لكل أمة خصائص تميزها في الفكر والحضارة، ولها أهداف يسعى العلماء لتحقيقها في كل العصور.

---

1 – لا يزال الفكر اللغوي لدى علمائنا مشدودا إلى مناهج القدماء في رؤيتهم إلى بعض قضايا فقه اللغة مثل الدكتور رمضان عبد التواب في كتابه < فصول في فقه اللغة والدكتور جعفر دك الباب في كتابه نحو نظرة جديدة إلى فقه اللغة.